البطولة وهل ندرت؟

للأستاذ فتحي رضوان

يحلو لي أن أدخل في المناقشة التي أدارها الكاتبان «النابغان» عباس العقاد وأحمد أمين حول النبوغ والبطولة ... يحلو لي أن أدخل في هذه المناقشة خصماً ثالثاً، وإن كنت أكره لفظة «خصم»، ولكن ماحيلتي وقد علمنيها القانون ...!

لقد طالعت مقال الكاتب «النابغ» أحمد أمين، وأدركت نظريته التي بناها على أن النبوغ هو سبق النابغ لمعاصريه، حتى ليعجزوا عن اللحاق به، إلا بعد زمن قد يطول، وذلك حين يكون النبوغ عالياً ورفيعاً، وقد يقصر، وذلك حين لا يكون النابغ ممتازاً إلا بقدر ...

ولقد ساقته هذه النظرية إلى نتيجة. آمن بها، ودافع عنها، وضرب الأمثلة العديدة على صحتها وسلامتها. والنتيجة هي التي استوقفتني، فدفعتني إلى التأمل فيما جاء بهذا المقال، ثم هي التي حفزتني على كتابة هذا الرد. فالأستاذ أحمد أمين يرى أن نوابغ هذا العصر قلة، لأن أساليب التربية الحديثة، ونظام المجتمع الذي نعيش في ظله أشاع العلم، وأضعف الفوارق بين الخاصة والعامة، وأتاح فرصة التحصيل والتفوق للفقراء وذوي الثراء. وقد بلغ اقتناع الأستاذ أحمد أمين بهذه النظرية وبنتيجتها مبلغاً حمله على أن يضرب لنا الأمثال بالتلميذ في المدارس الثانوية، فهو ينظر اليه، كل يوم، فيراه يطالع كتب الطبيعة التي تشرح قواعد الضوء والصوت، والحرارة والكهرباء، فيقول: «إنه يعرف ما يعرفه نيوتن، وأكثر مما يعرفه»، ثم يراه يقرأ كتب النحو والصرف، والبلاغة فيقوى يقينه بأن ما وصل اليه من نتيجة صحيح جداً فيقول: «إنه يدري من النحو، ما لا يدريه سيبويه»

ثم يطمئن إلى هذا الاستقراء فيقول لنا إذا كان محصول علمه يفوق علم جهابذة العلوم والآداب، وهو بعد تلميذ في المدارس، يخطىء ويصيب، وينجح ويتعرض للسقوط، ويذاكر ويشكو قسوة الامتحان، فكيف تظنون أن عهد النبوغ لم ينصرم بعد؟. وأين مجال التفوق أمام الموهوبين وذوي الجد ما دامت المدارس قد ذللت المعرفة وفتحت أبوابها على المصاريع؟

قد كان التفوق والنبوغ بالأمس ممكناً، لأن النابغة كان مبصراً وسط عمي، وصاحياً وسط مغفلين ومدركاً بين جهال. أما اليوم فأصغر علماء الطبيعة كأكبرهم. يعرفان من أمر هذا العلم وقواعده قدراً يكاد يكون متساوياً. فاذا وجد الفارق بين العالم الصغير والعالم الكبير فليس هو بالفارق الذي يضفي على الكبير منهما صفة النبوغ والتفوق ...

وقد سألنا الأستاذ أحمد أمين أن ندله على السياسي الذي يفوق أقرانه ويبذهم، وقد نبهنا إلى استثارة الشعوب وبصرها الآن بأساليب الحكم وفقهها لطرائق الادارة؛ ثم سألنا أن ندله على العالم الذي يسبق جيله أو معاصريه، وتنبهنا إلى أن العلوم اليوم والفنون كذلك قائمة على سنة التخصص.

الأدب الاغريقي، وعنه تلقوا رسالته وهي الجمال، فصارت هذه رسالة الأدب الانجليزي أيضاً، فكان الأديب الانجليزي يتوخى الجمال فيما يشاهد ويحس ويكتب، في حين كانت الحكمة والعبرة والموعظة قبلة الأديب العربي في كل ذلك، ومن الأدب الاغريقي تعلم الأديب الانجليزي أيضا أن يطلق لفكره العنان ويفسح لبيانه المجال، على حين ظل رائد الأديب العربي بلاغة الايجاز، وكبح جمحات الخيال.

ومن ثم تمثل خير ما في الأدب العربي في حكم الشعراء والخطباء والكتاب، وجوامع كلمهم وموجز بيانهم، وتمثل خير ما في الأدب الانجليزي في سبحات الخيال المطلق المطنب، من درامات وملاحم وقصص، فالعيب الاجتماعي أو النقص السياسي الذي كان يراه الأديب العربي، فتحمله الظروف سالفة الذكر على أن يصوغه حكمة موجزة عامة لا تثير ريبة السلطان، كان يحوك حوله الأديب الانجليزي في قصة اجتماعية رحبة الجوانب تشخص موضع الداء تشخيصا؛ وتعين الدواء، ويتجلى الفرق بين الاديبين في هذا الصدد في نوع عبقرية شاعريهما الفذين: فقد بلغت العبقرية الشعرية الانجليزية ذروتها في آثار شكسبير صاحب الدرامات العجاجة بالخيال المطلق، وبلغت العبقرية الشعرية العربية أوجها في قصيد المتنبي الحافل بالحكمة البليغة

فتحي أبو السعود

وأفهمنا أنه لا يوجد طبيب ، وإنما يوجد اخصائيون فى كل فرع من فروع الطب ، ولا يوجد قانونيون ، بل مطبقون لناحية واحدة من نواحى القانون ...

والحق أننا نشكر للأستاذ هذا التنبيه ، لأننا نستطيع بعده أن ندله على النابغين المتفوقين الذين يسبقون معاصريهم بالسنين ويفوتونهم بالمراحل . فالتاريخ لم يعرف حاكما كموسوليني ينبعث من خنادق الحرب ، ثم يشتغل سنين معدودة فى الصحافة ، ثم تدين له الدولة والأمة بالطاعة والانصياع . ويصبح البون بينه وبين أكبر رجال أمته شاسعاً ، حتى لا يكاد يوجد فى إيطاليا إلا موسوليني ، الكلمة كلمته ، وكلمته قانون ، وقانونه مقدس أسمى من أن يشوبه خطأ ، ثم تتحالف عليه الدول وتطوق بلاده بحصار لا يرحم ، فيجرح شجاعته ، ويواجه العاصفة بسيل من الخطب ودنيا من التدابير ... فالتخصص ومجانية المدارس وتذليل أساليب التحصيل ، كلها لم تحل دون بروز شخصية سياسية طاغية فى إيطاليا . وهذا البروز ، هو النبوغ على الأقل كما وضح لنا الأستاذ أحمد أمين مقياسه - ولكن الأستاذ يريد أن ندله على نوابغ كثيرين وإلا كان محقاً فيما ذهب اليه من أن العصر الحديث لا يعتبر عصر النوابغ ، بل عصر ارتقاء الجماعة الانسانية ارتقاء لا يسمح بايجاد الفوارق الواسعة بين العامة والخاصة ، وبين الكبار والصغار . ولكن حسب الأستاذ الكبير أن يدير بصره فى العالم بأسره ليعلم أننا نعيش فى عصر النابغين فألمانيا يحكمها رجل واحد يتصرف فى أمورها كما يحلو له ، أو على الأقل كما يحلو له ومستشاروه الذين من حوله .

وروسيا ، على رأسها رجل يضع دستورها ، وينفذ قانونها ويشرف على جيشها ، والذين من حوله أقزام ينظرون اليه ولا يقوون على مقاومة إرادته ... وعلى الأستاذ الكبير أن يسأل من اليوم صاحب النفوذ الذى لا يحد فى تركيا ، وفى بولندا - قبل وفات سلسودسكى - وفى النمسا وفى تشكوسلوفاكيا فى عهد مازاريك ليعرف أننا محكومون بالنابغين والمتفوقين فى عالم السياسة وليدرك أن بصر الشعوب بأساليب الحكم ، وفطنتها الدستورية ، لم تحل دون ظهور هذه الكثرة من ذوى السلطان المطلق ..

فاذا رجعنا إلى التاريخ القديم ، وجدنا أن روما التى احتملت موسوليني أربع عشرة سنة متوالية ، لم تستطع أن تحمل يوليوس قيصر مثل هذه المدة .

قد يعترض الأستاذ فيقول : ولكن من قال عن هؤلاء الحكام نابغون ؟ وهو لا يحرجنى بهذا السؤال . لأنه هو الذى ضرب لنا المثل ، بنابليون ، ولا أحسب أن نابليون من حيث معدن العظمة يبذ واحداً من هؤلاء الذين ذكرت أسماءهم

فاذا أدرنا وجهنا إلى ميدان العلوم والفنون الفيناه ميدان العالقة والأقزام ، ميدان الذين تلامس هاماتهم السماء والذين تلاصق أسماؤهم التراب . على الرغم من أن هؤلاء وأولئك ، حصلوا على نصيب واحد من العلم المدرسى . فالأستاذ أحمد أمين يصيب كثيراً من العناء إذا هو أراد أن يجد قريناً لرجل ككارل ماركس ألف كتاباً قلل هذا الكتاب عروشاً ، وأزال دولا ، وقلب وجه التاريخ ، ورجل كداروين لا يشابهه فى ميدان الطبيعة أكثر الذين حوله ، ولا نستطيع أن نقول إن كارل ماركس هو وحده النابغة فى ميدان الاقتصاد ، ولا أن داروين هو وحده المتفوق فى ميدان الطبيعة ، فالى جانب ماركس برودون وبلاخانوف ويوخارين وغيرهم وغيرهم ممن كانوا إلى جانب طلاب الاقتصاد وأساتذته وكتابه والمشتغلين به نوابغ بل عباقرة . وفى الأدب يكتب الآن الكثيرون ، والمطابع لا تنفك تخرج المؤلفات والمصنفات ، ولكن ألا يوجد الكاتب الذى تساوى كلمته فى حساب المادة عشرات الجنيهات ، والكاتب الذى لا تساوى كتبه شروى نقير ... ثم ألا يوجد الكاتب الذى تفعل بدائعه فى النفوس وفى الشعوب فعلا تارة يدفع بها الى العنف ، وأخرى يميل بها إلى الرضا ... فكثرة الكتاب فى أوربا وفى العالم ، وكثرة الموسيقيين وكثرة الاقتصاديين لم تحل دون النابغين ، ولكن الأستاذ احمد أمين يريد أن يرى هؤلاء النوابغ ، ويريد أن يسألنا عن الفرق الكبير بين كاتب انجليزى وكاتب انجليزى آخر ... والحق أننا لا نتعب كثيراً فى أن ندله عليهم ، لا بذكر الأسماء بل بوضع قاعدة تغير الموقف .

فالاستاذ لايرى موسيقياً كالموصلي ولا كبتهوفن . ولا شاعراً كشكسبير ، ولا كالمتنبي . ولا كاتباً كعبد الحميد ولا كابن المقفع ولا كاكولى . فيقول : لانبوغ فى هذه الأيام وينسى أن الذين يتحدث عنهم جميعاً طواهم الموت وأحاطهم القدم بجلاله ، ومحا أسماء منافسيهم الذين كانوا يعيشون معهم وبقيت أسماؤهم وحدهم ، وأن المعاصرين يعيشون معنا ، ونحن نقرأ أسماء النوابغ وأسماء العامة ، أقصد العاديين من الكتاب والفنانين ، ولكن غدا سيموت الجميع ، والأجيال القادمة هى وحدها التى ستدون أسماء المتفوقين الذين عاشت بدائعهم ، وخلدت مؤلفاتهم . وظهرت آثارهم ، عظيمة ومؤثرة وجليلة وستقول هذه الأجيال كما يقول اليوم الاستاذ احمد أمين إن جيلها يخلو من النوابغ وإن الأجيال السابقة هى عهد المتفوقين والمبرزين .

فمثلنا مثل الذى يقف الى جانب الجبل ، لا يرى قمه ، ولا سوافله ، إنما يرى جسما مسطحاً لا تضاريس فيه . فاذا بعد عنه ظهرت معالمه وبانت خطوطه واتضح له أنه عال فى ناحية ومنخفض فى ثانية ، أو قل إن مثلنا مثل الوالد يعيش مع بنيه فلا يدرى أنهم يزدادون طولا مع مرور الزمن ، فاذا غاب عنهم شهراً وعاد أدرك أن هذا أطول من ذاك ، وأن أكبرهم أشد سمرة من أصغرهم ، لأن طول النظر إلى الصورة لايبرز معالمها .

المدارس انتشرت ، والمعارف رخصت ، ولكن النفس البشرية هى هى باستعدادها ، سيبقى النبوغ فيها استعدادا لايضعفه نظام ، ولا يقويه نظام ، إنما يغير فيه قليلا .

لقد طرنا فى السماء ، وغصنا فى الماء ، ولكن لايزال الواحد منا اذا ما خلا إلى نفسه فى القمر ، ثارت شجونه ، وتحركت فى عيونه شؤونه ، تماما كما يفعل ابن الصحراء وراكب الجمل .

وأحفادنا سيقولون — حينما يقرأون مقالنا — إننا تعجلنا الزمن ، فقلنا عن عهدنا إنه عهد لا نبوغ فيه ، وإنهم سيرونه عهدا ككل العهود ، فيه النوابغ وفيه العاديون ، فيه العبالقة وفيه الأقزام .

فتحى رضوان

على هامش رحلتى الى الحجاز

ليلة فى مكة

بقلم الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ الشرقى بجامعة بودابست

أخذ الغسق يهبط بسرعة فى وادى مكة الضيق ، المشبع بهواء الصحراء الجاف ؛ وهنا بدأت خيوط الأصيل الذهبية تتلاشى ثم تختفى دفعة واحدة كأن ستاراً أسدل عليها بغتة ؛ وبعد فترة وجيزة أخذ الليل ينشر خيمته السوداء فنسينا حينذاك ذكريات الغروب الجميلة وأصبحت لدينا كحلم سافر بعيد ، ثم خيم السكون وشمل المدينة كلها .

وكنت أشاهد منظر غروب الشمس من إحدى نوافذ بيتى الصغير فى مكة . ولم ير الديك الذى كان يصيح طيلة النهار داعياً لايقاف صياحه ، كأن عظمة هذا الغروب لم تؤثر فى نفسه ، ولكن الدجاج لاذت بالصمت وراحت تتسلق أقفاصها استعداداً للنوم .

وكان يقع فى طرف فناء البيت الصغير الذى أعد لضيافتنا قسم خاص بالحريم تجلس فى إحدى غرفه سيدة وقور اسمها سنية ، تقرأ القرآن على ضوء مصباح خافت اللون ، على حين كانت ابنتها فاطمة النحيلة الخصر منصرفة إلى اعداد طعام العشاء لارساله إلينا مع إحدى العجائز . وحتى هذه العجوز الشمطاء كانت تتخذ كل الحيطة عند احضارها الطعام بحيث لايظهر وجهها ، وكانت تحمل الصينية على يديها ثم تدفعها بحذر على عتبة الغرفة وتنسل راجعة ، فأقوم بدورى لآخذ الصينية بمجرد وضعها على العتبة . أما الطعام فهو لا يخلو عادة من الأصناف العربية المشبعة بالتوابل

كانت هذه العجوز تحاول كما قلت أن تمنعنى من رؤية وجهها ، ولقد أفلحت فى ذلك إلى حد كبير ، فلم أر منها إلا ذلك الهيكل العظمى ، ولم أسمع من حركتها إلا صوت ذلك القبقاب الخشبى الذى كنت أسمع طقطقته على الدرج